كتاب

٦٦

فؤاد شاكر

ميراث الفقراء



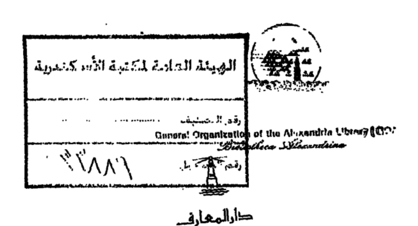


كتابك ٦٦

رئيس التحرير أنيس منصور

فؤاد شاكر

ميراث الفقراء



دار المعارف

الناشر : دار المعارف · ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحن نعرفهم من قريب أو من بعيد . . نسمع عنهم ، ونحفظ لهم ، وقد نقتدى بهم . . وغالبا ما تكون صحبتنا لهم بعد أن أصبحوا أعلاما مشهورين . لكن ، ماذا عن البدايات الأولى : المكان . . البيئة . . الأسرة . . الأهل . . الصديق ؟ ! من المرجح أن لهذه العناصر جميعها تأثيرا غلابا فى التربية والتنشئة ، ثم قد يكون لها النصيب الأوفى فى اختيار المسلك والتزام الطريق . . ولما كان العظيم من الناس يولد عادة كما يولد أى واحد من البشر ، ثم يُنسج رداء عظمته مع نسيج حياته من خيوط شتى ، فإن تتبع تلك الخيوط وفهم انتظامها ، يتيح للآباء (وللأبناء أيضاً) مزيداً من القدرة على النجاح فى أداء رسالتهم كآباء وأبناء . .

وَلَسْنا بحاجة إلى أن نبحث عن نماذج من شرق بعيد أو من غرب غريب . . فما أكثر وما أروع الشواهد والأمثلة المستقرة فى خزائن تراثنا القيم المجيد ، اخترنا منها أربعة ، من اقصى المشرق العربى ومن مغربه وجنوبه ، فى عصور مختلفة . سرنا معها - بقدر ما يسع المكان - على نفس الدرب الذى ارتضيناه . . وفى ذلك تأكيد على أن نهج الإيمان واحد ، وأن الفوز فيه لمن سارع وبادر عن بصيرة ويقين ، وما ذلك على الله بعزيز : « فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى » ، « سورة طه » .



أم الإمام

المكان : مَرْو عاصمة خراسان .

الزمان : عام ١٦٣ هـ .

يُغادِر القائد الشاب محمد بن حنبل مدينة مرو تصحبه زوجته . يقصدان عاصمة الخلافة — بغداد — ومعهما ثالث لا يَرَى ولا يُرى . لأنه مازال جنينا فى بطن أمه « صفية بنت شيبان » .

وما إن يصلا إلى بغداد ، حتى يرحل القائد عن الدنيا فجأة ولم يتجاوز من العمر الثلاثين ! ثم تضع الزوجه حملها فى ربيع الأول ١٦٤ هـ (٨٧٠ م) ، ليصبح الطفل اليتيم أحمد بن حنبل ، هدية النبهاء إلى بغداد ، بل إلى العالم الإسلامى كله .

فى مقدور الأم أن تواصل مسيرتها فى الحياة فتنتقى من جديد وتتزوج . . ومن حقها أن تفعل ، ولو قد فعلت . فلا لوم عليها ولا تثريب . . وهى جميلة شابة من بيت عريق من بيوت بنى شيبان . تاريخهم معروف فى الحرب والسلم ، فى العلم والشعر والأدب والتجارة والصناعة ، إذ لهم بين العرب مكانة وفى المكارم قوة . . لكنها آثرت أن تعيش الدنيا لطفلها ، فآثرها الطفل على كل من سواها . .

أىّ خاطر كان يجول فى ذهن الأم ، وهى تختار هذا المصير ،

وتتصدى بكل الأمانة لتحمل تلك الرسالة فى تربية الابن وتنشئته على النحو الذى كان ؟ ! لعلها حدثت نفسها فى صفاء وسمو ، بما يليق بأبناء شيبان – وجدهم الفارس القائد البطل « المثنى بن حارثة » الشيبانى – فارتأت صنيعها هذا نوعا من الجهاد وخطة فى معركة الإنسان مع الحياة . وقمين بآل شيبان ، وهم الذين قادوا المعارك وصَنَعُوا البطولات فى البحرين واليمن وفارس والعراق ، أن يلتمسوا لأنفسهم ولذرياتهم من بعدهم ، سبل التفوق والفلاح : يمهدون لها ، ويوسعون فيها ، ويضيفون إليها ، ويقتحمون بها . . والأمر فى النهاية : نجاح أو فشل ، هزيمة أو انتصار ، سواء فى حرب أو سلم . . فالحياة فى تدفقها المتتابع ، عند البعض ، صراع يحتاج كل يوم إلى بطل . !

فإلى أى مدى كان نصيب الأرملة الشابة من هذا النجاح أو الفشل ، وهى تواجه معركتها وحدها ، فى عاصمة الخلافة التى توالت عليها المحن ، ومزقتها الصراعات ، ولوثتها سحب قاتمة من المثالب والاضطرابات ؟

لننظر ما فعلت ، حتى يستقيم الحكم ويصدق القياس . .

أول ما علّمت طفلها منذ حداثته : القرآن ، والحديث ، واللغة والأدب ، وشيئا من الفارسية التى عرفتها أثناء إقامتها بمرْو . وأتاحت له – وهو صغير غلام – أن يحفظ القرآن ويقرأه على كبار القراء فى عصره .

والأم عادة – أى أم – تحكى لطفلها القصص والأساطير ، ففيها تسلية وغذاء لخياله ، كما قد يكون فيها استجلاب يُسكت الطفل من

بكاء يُشقيه ، أو يُريح الأم من عناء يرهقها . فأى قصص وحكايات كانت ترويها « صفية » لابنها « أحمد » ؟

ما أكثرها وأروعها : سيرة النبي – عليه السلام – وسير إلى بكر وعمر وعثمان وعلي . وتقص عليه بعضاً من أخبار معاوية ، وطرفا من مآثر أجداده مثل ذهل بن ثعلبة (الجد الأعلى للمثنى بن حارثة ولأحمد ابن حنبل ويجتمع مع النبي في نزار بن معد بن عدنان) ، ومعن بن زائدة ، الذى سماه الخليفة المنصور (أسد الرجال) . وولاه اليمن ليخضع ثورة نشبت فيها فأخضعها ، وكان شجاعا جواداً كريماً ، قال فيه مروان ابن أبي حفصة :

معن بن زائدة الذى زيدت به .شرفا على شرف بنو شيبان

وترويه الأم الفاضلة أنباء الصحابة والتابعين ، والأدباء والشعراء ، والمحاربين وأصحاب البطولات ، وتحدثه عن الخلفاء والأمراء ، وعن الوقائع ومفاخر الرجال . . وأيضا فضليات النساء !

أى أم معلمة هى ؟ ويالها من مربية راشدة ! إن الثمرة تدل يقيناً على الشجرة ، وإن الشعاع يهدى السالكين إلى مصدر الضياء . ومن غير المألوف أو المقبول أن يهبط التفوق والنجاح فجأة . . فالسماء ، كما قال ابن الخطاب رضى الله عنه ، لا تمطر ذهباً ولا فضة . . وإنما هو إعداد واستعداد ، وأخذ بالأسباب . وهناك قاعدة جزائية أبدية ، يقررها القرآن الكريم فى تحديد واضح إذ يقول : « إنّا لا نُضيع أجر من أحسن

عملا » . فكل أم – وكل أب كذلك – تريد لابنها أو لابنتها النجاح والفلاح ولكن : كم سعد أبناء بآباء ، مثلما شقى آباء بأبناء . . وأغلب الظن أن سر النجاح أو الفشل يبدأ من هنا : عند ظلال الأب أو الأم ، أو كليهما معاً : قدوة وقدرة وفهم وعطاء . . إذ « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل » .

حسب الغلام هذا « البيت » الذى يُصنع فيه ويتكون وينمو ، بتوجيه تلك الأم الواعية القادرة الأمينة . حسبه ما يتغذى به من قرآن وحديث وسير وبطولات تُحكى . حَسْبه ما يتشربه من معارف وقيم وشمائل وأخلاقيات ، يتمثلها فى غدو ورواح ، ويديرها فى رأسه أو يحدّث بها نفسه ، فتصقل وتشع حتى قبل أن يبلغ سن الرجال . . فقالوا عنه : « إنه الغلام التقى بين العلماء ، والشاب النقى بين الشباب » . . وماذا نتوقع من غلام يدرج نحو الصبا والشباب ، تحوطه تلك الرعاية ، وتعلمه وتربيه مثل هذه الأم ، ويقتدى فى تصرفاته وسلوكه بما استحفظ ووعى ، سواء من البيت أو المسجد ، أو من أهل العلم والفضل ؟ يقول الرواة : لقد كان جادا بين الصبيان حيث يهزلون ويلهون ويلعبون . وقد أكسبه اليتم جِداً وقوة احتمال ورغبة فى العمل . وكان الآباء يلاحظون ذلك عليه ، ويريدون أن يكون أبناؤهم على مثاله . .

فلما بلغ السادسة عشرة ، بدا واضحا أن « نجْماً » يبزغ فى أُفُق مكين ، ويتخذ مداراً فى سماء العلم الجاد الرصين . نراه يزداد حبا للعلم ،

وتعلقا بحلقات الدرس . . والأم المتصلة بالله ، الواثقة من انتصارها بفلاح ابنها وصلاحه تدفعه برفق نحو مسالك العلم ودروب العلماء ، وتوصيه بالاعتدال ، إذ كان يتعجل الذهاب إلى مجلس شيخه قبل طلوع الفجر !

ويشهد له العلماء الذين اتصل بهم وهو صغير ، بما قاله فيه « الهيثم بن جميل » : « إن عاش هذا الفتى ، فسيكون حجة أهل زمانه » !

فى المقابل ، كان الفتى يعامل أمه بالحب القائم على الاحترام والطاعة ، كدليل على الوفاء والاعتراف بالفضل . وظل طوال عمره — إلى أن كبر وأصبح شيخاً جليلا مهابا — يذكرها شاكرا بما يؤكد هذا المعنى . ويكفى أن نشير إلى أنه فى شبابه ، حيث يكون الاندفاع ومزالق الحدّة والحماس المفرط ، دعاه صديق له أن يَعْبُرا نهر دجلة ليلحقا بالمسرعين إلى مجلس عالم الرّى الشهير « جرير بن عبد الحميد » وقد قدم زائراً لبغداد ، فامتنع أحمد عن صحبته . . برغم حبّه الشديد للعلم ومجالس العلماء — واعتذر قائلا : إن أمى لا تَدَعُنى أى لا تأذن له بذلك ، مخافة النهر الذى كان فى فيضان شديد . فهو يؤثر رضاها ولو كان مخالفا لما يهوى ويرغب . وانطلاقا من هذا الحب لأمه ، ولكل أم صالحة صابرة مكافحة . سنراه وهو شيخ وقور ، تفيض عيناه من الدمع حزنا ، كلما تذكر الإمام أبا حنيفة الذى قال فى معرض قصته حين سجن وضرب لكى يرضى بولاية القضاء فى عهد بنى أمية : « كان غمّ والدتى علىّ أشدّ

من الضرب ، فيثنى عليه أحمد بن حنبل ، ويدعو له وهو يبكى !

وهنا ، عند هذه المرحلة من حياة الإمام أحمد بن حنبل ، يحسن أن نتوقف قليلا ، ثم نستدير برفق وأناة إلى الوراء ، مع الناجين من الآباء والأمهات ، لنراجع معا هذا الأسلوب فى الإعداد وتربية الأبناء . . فليس كل يتيم بالضرورة مهيأ للصبر والجلد واحتمال المكاره . وليس كل صبى (أو فتاة) مطبوعاً على احترام الوالدين ــ أحدهما أو كليهما ــ وفاء بما قدّما وصنعا . وليس كل أرملة شابة ملزمة بالانقطاع لتربية أبنائها تجنى بهم سعادة وتحصد ثمار نجاح . فالإنسان فى واقع الأمر مخلوق شديد التعقيد ، متشابك النوازع والدوافع والعلاقات . وهناك عوامل كثيرة متداخلة تشترك حقا فى صياغته وتكوينه. لكن التاريخ يعلمنا ، وسير الصالحين المصلحين تؤكد لنا ، أن ضمانات النجاح فى إعداد الأبناء تزداد كلما زاد وعى الآباء ، كلما زادت قدرتهم على العطاء (وأحيانا المنع !) ، والعطاء السليم ، وبالقدر المناسب ، وفى التوقيت الصحيح . وهو علمٌ وفنٌ معاً ، أى معرفة وأسلوب ، الجميل فيه والغريب : إنه علم يتجدد فى كل أسرة ودا خل كل بيت ، لسبب جوهرى ، هو أن كل طفل ــ إنسان ــ هو نسيج فريد فى ذاته ، ونموذج لا يتكرر . والأسرة قلّت عددا أو كثرت ، لا تتشابه فى ظروفها وعلاقاتها وخصائصها مع أسرة أخرى غيرها ــ وتلك حكمة وإبداع مُعجز للخالق سبحانه ــ ومن هنا يدخل الآباء التجربة ، جديدة فى كل مرة ، أو

هكذا تبدأ حتى يأتى الجزاء بقدر الصدق فى العطاء فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، وحتى يظل القياس بنفس المقياس : « إنا لا نُضيع أجر من أحسن عملا » .

ربما لا نتجاوز الصواب إذا قلنا إن هذا الأسلوب فى التربية ، وهذا النمط فى التنشئة حرىٌّ به أن يسلك بالصبية والشباب مسالك الصلاح والفلاح أينما اتجهوا . وحيثما كانوا . ولقد منَّ الله على الفتى وأمه فاتجه به نحو طريق العلم الوافر النافع العسير المنال : علم الدين والتفقه فيه . فالله تعالى يقول : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » ويقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » . وقد يسر له الأمر ، وخرج أحمد بن حنبل على الدنيا برزق وافر من علوم الدين ، خاصة علم الحديث ، تفوق فيه وتفقه . واستنبط منه الأحكام ، وأحكم القياس . .

وطالب الحديث فى عصره . . وفى كل عصر لابد وأن تتوفر فيه صفات منها : التقوى ، والإجادة ، والصبر ، والجلد . وبهذا كله عرف أحمد واشتهر بين أقرانه وعارفيه ، وهى النتائج المنطقية لنشأة عرفنا جانبًا منها ، ولتربية أشرنا إلى بعض الفضل فيها . وبهذه الصفات التى اكتسبها وعُرِفَ بها ، رَحَلَ وهو فى سن العشرين وتنقل بين المدن والأمْصار — من بغداد إلى الكوفة ثم البصرة والحجاز واليمن ، يحتمل المشاق ويصبر على المكاره ، تماما كما يفعل أولو العزم وكرام المجاهدين فى سبيل الله . . كل

ذلك سعياً إلى رواة الحديث وثقات العلماء ، يلتقى بهم ، ويستمع إليهم ، ويأخذ عنهم . . فى عفة وقناعة وزهد لزاما وأن تكون من شيمته ، لدرجة أنه اقام سنتين فى صنعاء ، إقامة خشنة وفى فاقة لا يرتضيها أو يحتملها كثيرون ، لكنه احتمل راضيا ، واحتسب راجيا ، ورفض متأدبا أن يمده بمال معلمه المحدِّث الشيخ عبد الرازق المشهور يومها بصنعاء ، اكتفاء بمدد الله من عطاء العلم ونور المعرفة . . فكان يؤجِّر نفسه لِلْحَمْلِ إذا انقطع به السبيل ، أو ينسخ بالأجر ، أو يجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض مُباحاً ، ولا يترك عملا مهما كان بسيطا طالما كان شريفا يغنيه عن دنيا الناس . . ويالَيت المنكبين على الدنيا والمتباكين عليها بدموع الدين — فى كل عصر — يفهمون أو يعقلون ! !

ولعل هذه الصفة البارزة من كريم صفاته ، « الصبر الجميل » إنما تعلمها وراض نفسه عليها حتى اعتادها نقلا عن أمه الصابرة المحتسبة . . وترتب على ذلك — كما قيل عنه سماحة وقورة ، وتواضع مهاب : . ألم يمتنع عن الجلوس فى مجلس الأستاذ المعلم قائلا : لا أحدِّث وبعض شيوخى حىٌّ ! ؟ وبالفعل ، يذكر الرواة أنه لم يجلس للدرس والإفتاء فى بغداد إلا بعد أن بلغ سن الأربعين وبعد أن مات الإمام الشافعى بمصر ! !

وعن مجلسه ، يحدثنا واحد من أصحابه — المروذى — فيقول : « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله (أحمد بن حنبل) ، كان

مائلا إليهم ، مُقْصرا عن أهل الدنيا ، ولم يكن بالعَجُول ، بل كان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار . إذا جلس مجلسه بعد العصر ، لا يتكلم حتى يُسأل . . »

رحم الله الإمام الشيخ . . !

وأجزل عطاء أم الشيخ الإمام : أحمد بن حنبل !

شمس العلماء

بين الحين والحين ، يطلع علينا رجال التربية – ونساؤها ! – بأفكار وتصورات عن أساليب واتجاهات يرون – فى زعمهم – أنها جديدة ، وأصيلة ، ويجهدون أنفسهم فى صياغتها نظرات أو نظريات للمربّين والمعلّمين . ولعل آخر ما بلغنا من الغرب البعيد ، اتجاه يدعو إلى الربط بين البيت والمدرسة ، وبين المدرسة وشخصيات فى المجتمع ، كالمحامى والطبيب ورجل الشرطة والمصور ومذيع التلفزيون . . إلخ ، على اعتبار أن الطفل يتلقى من كل هؤلاء ويلتقى بهم ، ويأخذ عنهم من قريب أو بعيد فكلهم يشارك فى تعليمه وتوجيهه وتربيته وتثقيفه . .

وكأنما لا جديد تحت الشمس . .

فهذا الغلام من « سيالكوت » فى كشمير . يعود بهذا الأسلوب فى التربية والتنشئة إلى مائة عام أو يزيد . . وبالتحديد إلى عام ١٨٧٧ . فى التاسع من نوفمبر ، وفى شارع ضيق عتيق ، يسمى « شارع صناع الخواتم » ، قام الشيخ « نور محمد » يتوضأ كعادته لصلاة الليل .

لكنه أدخل على صلواته فى تلك الليلة أمراً جديدا : إذ بدأ بصلاة ركعتين شكراً لله تعالى ، أنْ مَنَّ عليه بطفلٍ جديد سماه « محمدا . . » فى هذا الشارع القديم ، وداخل ذاك البيت المتواضع ، وتحت ظلال

ذلك الوالد الشيخ التقى الرحيم ، ينشأ « محمد إقبال » ويتزود بزادٍ أثمر كله أو بعضه ، أسهم فى صُنع داعية إنسانى من دعاة الحق ، وفيلسوف يشع بفكره أنوار الحكمة ، وشاعر يحلق بكلماته المباركة فى آفاق الخير المصفّى ، ثم يسقطها بردا وسلاما فوق نوازع النفس ولهيب دنيا الناس !

لئن كان الفقر – المفروض فرضاً – باباً قد يُفْضِى إلى سوءات وشرور (استعاذ منها النبى ﷺ بدعائه المأثور : « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر .. ») ، فإن بيت هذه الأسرة كان بمنأى عن كثير من آثام الفقر القاهر المذل ، الذى ساد الشارع ، بل الحى بأكمله ، وربما الهند جميعها ، حيث كانت فى قبضة استعمار مهلك مقيت . فقد تعلم الفتى « إقبال » ، وهو يطل من بيت أبيه على الشارع ومَنْ فيه ، كيف يتعامل مع الفقر والفقراء . . يذكر إقبال تلك الواقعة :

« طرق بابنا يوماً فجأةً سائل قبيح الصوت ، وراح يهز الباب فى عنف . واستفزنى صياحه وإلحافه ، فخرجت إليه بعصا هويت بها على رأسه ، فأطاحت الضربة بما يحمل من فتات جمعه طوال يومه . . لكننى فزعتُ إذْ رأيتُ والدى – وقد شاهد ما فعلتُ – والدموع تنحدر بغزارة على وجهه المنتقع فى صفرة شاحبة وهو يقول لى فى أسىً : تذكَّرْ يا بنىّ جلالَ المَحشَر ، يوم تجتمع أمةُ خيرِ البشر ! ألا ترى لحيَتِى البيضاء وجسمى الناحل المرتعش بين الخوف والرجاء ؟ ! أريدك يا بنى زهرةً فى غُصْنِ « المصطفى » حبيب الفقراء . ! !

ياله من درس كبير !

ولابن عطاء الله السكندرى – الحكيم الزاهد – قول مأثور جاء فيه « رب معصية أورثت ذُلاًّ وانكسارا ، خير من طاعة أثمرت عِزاً واستكبارا » . . وهذا ما وقع لصاحبنا الفتى « إقبال » . . فقد تعلم كيف يحب الفقراء : كيف ولماذا هم فقراء . ؟ ثم أدرك عن يقين ، كيف يرتضى لنفسه – مهما أقبلت الدنيا وأعطت – فَقْرَ الزَّاهِدِ الْعَابِدِ ، الْغَنِىَّ النفس ، العازف بإرادته عن متاع الدنيا وزخرفها .

حينما زرنا فى العام الماضى بيت إقبال ، فى مدينة لاهور بباكستان ، أدخلنا ابنهُ « د . جاويد » قاضى المحكمة العليا ، الحجرة الصغيرة التى عاش فيها والده العظيم ، وهى على يمين الداخل مباشرة من بهو المدخل . ذكر لنا أن الحجرة باقية على حالها تماما كما كانت ، فيها سرير بسيط صغير ، ومقعد متواضع ، وبساط كالح من نوع رخيص الثمن . وقال إن والده لم يَكُنْ يستعمل من البيت الواسع الكبير إلا تلك الحجرة وحدها طوال السنين السبع عشرة التى عاشها فيه ، لم يدخل حجرة سواها قط ! وكثيرا ما كان يجلس وسطها على الأرض ، وفيها استقبل زوّاره ومنهم الأدباء والزعماء والقادة ، خاصة فى فترة مرضه الأخير ، ! وهذا يتوافق تماما مع فكر إقبال الذى نلتمسه فيما كتب :

لا يعلم الإنسان كيف أتى إلى ... دنيا المتاعب أو متى يترحَّلُ
ما نحن فى الأكوان غير حديقة ... أزهارها عما قليل تذبل

يأيها الْحَرِصُ ابْك فى الدنيا دماً　　دنياك ليس بها لحىٍّ منزل

بتوفيق من الله ، ألقى الشيخ « نور محمد » فى نفس ابنه « محمد إقبال » تلك الجنَّة المباركة التى تنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء ! إن كلمة الوالد الشيخ ، لابنه عن الفقر والفقراء ، كانت بمثابة الشجرة الطيبة ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . ولقد عاش « محمد إقبال » طوال حياته يعطى من فكره وسعيه وفلسفته وشعره من أجل الفقراء ، والضعفاء ، والمغلوبين على أمرهم ، والمحرومين ، والحيارى ، والمعذبين فى الأرض . وهو عطاء يُؤْتَى فى كل حين ، لا ينضب مع توالى السنين . إنه يهزّهم هزاً ، ويَدُعُّهم دعًّا ، حتى يستفيق الغافل ويستيقظ النائم :

الأرضُ لا تُخفى حقيقة جوهرى　　أنا مَقصدُ التقدير فى الأكوان

وحقيقتى نورٌ فما لَى سابحاً　　فى لُجة الظُّلُمات والأشجان

فاخلق لروحك من زئيرك نشوةً　　فى المجد تُرهب فى العرين أُسُوداَ

واجعل نشيدك قولَ ربِّك « لا تخف »　　حتى يَهَابَ البرقُ منك رُعُودا

وما هو الفقر ؟ !

أى فقر نرتضيه ؟ وأى فقر يُخْجِل ؟ .

بعد رحلة فى الزمان والمكان ، من « سيالكوت » عام ١٨٧٧ إلى لاهور ١٩٣٨ يكون حصاد الفكر والتأمل والتجربة :

فقرنا ليس برقصٍ أو غِناء　　ليس سُكْرُ النَّفْسِ فى موتِ الرجاء

فقرنا معناه تيسير الجهود   فقرنا معناه تسخير الوجود
فقرنا العادى سراج لو ظهر   يُخجل الشمس ويزرى بالقمر
إنه إيمان بدر وحُنَيْن   إنه زلزال تكبير الحُسين

هو فقر الأنبياء والرسل ، وهم الصفوة المختارة من كل البشر ، حملة الرسالة ، ونور الهداية ، وهذا إمامهم وخاتمهم محمد عليه الصلاة وعليهم السلام :

فماذا كان مجلسه ؟ صفاء ، والبساط حصيرْ
وماذا كان مطعمه ؟ رغيف لمن دقيق شعيرْ
وماذا كان ملبسه ؟ قماش ، لم يكن بحريرْ
غنيٌّ عن جميع الخلق لكن ، للإله فقير !

إنه فقر الإنسان إلى خالقه . . أما عند الناس ، فهو الغنى مهما قَلّ ما يملك أو كثر . . ولكى يكون غنى النفس . عالىَ اليد ، لابد وأن يعمل وأن يسعى وأن يُنتج ، يجب أن يكون للمسلمين نظام اقتصادى متحرر من ضغوط السيطرة الأجنبيةُ المؤتمرة بهم . . هذا واجب لابد وأن يسعى المؤمن إلى تحقيقه ، والمجتمع كله يؤازره ، وإلاّ فلا خير فى إيمان يُفضى إلى المذلة والهوان :

المؤمن المقدام يمضى قاهرا   فى عزة الإقدام دون توانى
وإذا ارتضى للذل أمسى كافرا   بالله أو بكرامة الإنسان
لا يترك الدنيا تعيش وشعبُه   فيها قتيل الذل والحرمان

من شاب فى نسج الحصير فمالَهُ يوماً إلى نسج الحرير يدان
والذئب يأكل يُوسُفاً خيرا له من أن يُباع لتاجر العِبْدان

وإقبال ، ابن التاجر الشيخ ، الذى يقوم الليل كله أو بعضه راكعا ساجدا مُسَبِّحاً ، مثلما ينشط فى نهاره على رزقه ساعيا مقبلا ، يتعلم منذ الطفولة الباكرة ، أن القناعة تأتى من القدرة ، وأن الزهد يكون لمن يملك ، فما فضل العاجز المحروم فى رَفْضٍ أو إباء ؟ يقول إقبال :

أيها الناصح ليلا ونهارا داعيا أن نترك الدنيا احتقارا
إن معنى تركها تسخيرها فى سبيل الخير لا تدميرها

لم يكن هذا هو الدرس الوحيد الذى تعلمه إقبال من أبيه التاجر التقى . . بل هناك ما هو أعظم وأجل ! يحكى لنا إقبال ، أن والده كان يوقظه فى صباه لصلاة الصبح ، ويقول له : « يا بنى قم إلى الصلاة . . ثم اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك ! » فينهض الغلام يصلى خلف أبيه ويجلس لتلاوة القرآن .

أىّ قائدٍ قُدْوَةٍ ذلك الأب الشيخ ! ؟ لم يكن من علماء الدين ، بل كان تاجراً بسيطا متدينا ، أىْ كان عابداً وَرِعاً ، يتعامل أولا مع الله قبل أن يتعامل فى تجارته مع الناس . . لا يَتَّجِرُ فى دينه ، بل يُرْبِى تجارته بأخلاق دينه . . ورجل هذا شأنه ، وتلك توجيهاته لابنه ، لاشك فى أنه مُرَبٍّ فاضل ، وراع أمين ، ورَبٌّ أسرة برٌّ رحيم . مرة أخرى إذن . تُؤْتِى الشجرة الطيبة أُكُلَها بإذن ربها ، إذ يعترف إقبال فيقول : « منذ أن

دعانى أبى إلى قراءة القرآن الكريم ، بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ،
فكان من أنواره ما اقتبستُ ، ومن بحره ما نظمت . » ! !

وأين الأم داخل هذا البيت ؟ !

السيدة « إمام بيبى » ، تكاد أن تكون أميّة لا تُحسن قراءة ولا تجيد كتابة . يبدو على ملامحها الطِّيبةُ والسماحةُ . يشهد لها الجيران وأهل الحى بالفضيلة والتواضع وحسن الخلق . وإنّ ما يصفونها به أنها : محسنة كثيرة العطاء . . فأحبها الناس حب تقدير وإجلال ، وأحبها أبناؤها حب إعزاز وفخار . . توفيت عام ١٩١٤ قبل وفاة والده بستة عشر عاما . لكنها رحلت –كما قال إقبال فيما بعد– بعد أن ظلت المدرسةَ الأولى للعقل الوليد ، والحارس اليقظ على ثغور الحياة ، ترعى بالحب ، وتوجه فى وعى ، لم تنتزع ثقافة العصر من قلبها مشاعر الفطرة الإنسانية الصافية ، ولم تقتلع مبادىء الدين وخلقه القويم . . وربما من هنا ؛ بفضل هذه الأم الطيبة الصالحة ، استقر فى نفس إقبال وفكره إلى نهاية عمره ، مبدأ الثبات على قيم دينه وتراث مجتمعه مهما تنقل وارتقى فى مدارج التعليم الغربى وحصل على مراتب وشهادات . بل نراه ينصح الشباب بالحرص من مزالق الضياع فى تيار الثقافات الغربية الوافدة ، بعضها برَّاق ولكنه خادع ، وبعضها جذَّاب غير أنه مدمر :

هى المدنيّة الحمقاء ألقت بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صَنَعَتْ لهمْ صنم الملاهى لتحْجبَ عنهُم الحرمَ الأمينا

وكم فِتَنٍ تمادى الغرب فيها | وأحكم حولها السحر المبينا
فما أبقى على الكفار كفرا | ولا أبقى لأهل الدين دينا

* * *

وما برح الغرب يختال تيها | ويحترف الكيْد للعالَمين
لينشر فى الكون إلحاده | ويُنشئ ديناً على غير دين

* * *

أرى مدنيّة الغرب استفاضت | بفعل الرأسماليين سِحْراً
رياءٌ خادعٌ وبريقُ زيفٍ | سيَكْشفُ عنه يوم الفصل سِتْرا

وفى بيت الأسرة شقيق : « عطاء » . . أو كما كانوا ينادونه : الشيخ « عطاء محمود » . . يكبر إقبالاً بثمانية عشر عاما . فارق إذن فى السن كبير ، أزال حاجز المنافسة والضغينة التى قد تنشأ عادة بين الإخوة المتقاربين فى السن حين يشبون فى غفلة من رعاية الآباء المستنيرين .

إن الشيخ « عطاء » — وهو نَبْتٌ فى حديقة تلك الأسرة المزهرة يصبح بمثابة أب ثان لإقبال الصغير : يحنو عليه ، وينصح له ، ويستميله إلى القراءة ومطالعة الكتب ، وإقبال شيئا فشيئا يغترف من هذا النهر — نهر المعرفة — حتى أصبح وأمسى حبه وهواه ، يسبح فيه ويغوص ، إلى أن زاد فيه بفَيْض عذب سائغ للشاربين . .

والأخ — الحانى الصديق — مهندس محترف منظم الفكر ، يجمع بين علوم الدنيا وشىء من علوم الدين ، بين ثقافة العصر وميراث الأسرة مِنْ

قيمٍ تطبعُ النفْس على الخلق القويم . فلئن غاب الأب الصالح عن البيت لبعض شأنه وتجارته ، فها هى الأم عاكفة فى دوحتها لا تبرح ؛ ولئن غَفَلت الأم الفاضلة لشواغل تتنازعها ، فها هو الأخ الودود لا يضيق صدره ، وحبُّه لأخيه لا يفتر . وتلك روافد السعادة الحقة بين جدران بيت ، رضى الله عنه ، فغشيته السكينة ، وغمرته المودّة والرحمة ، فيظل « إقبال » طوال عمره بعد ذلك يدعو إلى الإخاء ، وينادى بالمحبة ، ويردد عن تجربة ويقين :

لم أَلْقَ فى هذا الوجود سعادةً — كمودَّةِ الإنسان للإنسان

ثم ينصح فى حكمة تضرب بجذورها إلى ما تعلمه ودرسه ومارسه فى بيت الأسرة :

أرى الأطماعَ فرَّقَتْ البرايا — إلى شيع كقطعان البرارى
يمزِّق بعضهُم فى الحرص بعضا — وكلهمُ لكلهمُ أعادى
تعصب بعضهم للَّون جَهْلاً — وللإقليم والدم والقبيل
بما نشر البلايا فى البرايا — وعم الْخلْقَ جيلاً بعد جيل
فجدِّدْ للتقارب والتآخى — نداءً يملأ الدنيا صداه
وقل ما قال سلمان وكرِّرْ — أبى الإسلامُ لاَ أبَ لى سواه
أَعِدْ يا طائرَ الحرم المفدّى — نشيد الحب للأقوامِ طُرا
وحَلِّق فى فضاء الكون واجعل — جناحك من غبار اللون حرا

والإخاء والحب الإنسانى عند إقبال ليس قيمة أخلاقية وحسْب ،

بل هو وسيلة ومنهاج حياة :

فى « رسالة الخلود » – جاويد نامه – يكتب « إقبال » على لسان الحلاَّج إجابة عن سؤال : كيف يمكن تنفيذ القانون الإلٰهى فى الدنيا ؟ أى كيف ندعو إلى الدين القيِّم ؟ يقول : « غرست صورة الحق فى العالم إماً بقوة المحبة وإما بقوة القهر . وحيث إن الله أكثر ظهورا فى المحبة ، فإن المحبة أولى من القهر . فالله يقول فى سورة النحل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) . فطريق المحبة فى الدعوة أفضل من طريق القهر . . » .

تستقيم حياة الصبى إذن – فى دفء هذا البيت – وتنضبط الساعة الداخلية فى نفسه وفكره ووجدانه ، بضوابط محكمة . يكتشف يوما بعد يوم ، أنها ترفعه بين أفراد الأسرة وعند الناس مكانة ، وتزيده قدرا . من مكونات تلك الساعة المحكمة وأجزائها المحكمة : الحب ، والطاعة ، وضبط النفس .

وقبل أن يخطو « إقبال » أولى خطواته خارج البيت إلى الطريق اللانهائى : طريق الحياة والناس ، يكون قد تعلم وتربى على صفات لاشك فى أنها ظلت جزءا من بنائه ، وتردد صداها فى بعض فكره فهو مثلا يتحدث عن مراحل تربية الذات فى « ديوان أسرار الذاتية » فيقول :

« . . والذاتية هي باطن الحياة . وهي تحيط الكائنات ، خلّفها الأزل ، وأمامها الأمل ، لا حدّ لها عَنْ يمين أو يسار . . فلا تغفل أيها الانسان عن ذاتيتك ، وكن حارس نفسك ، لأنك قد خلقت لتكون ضياء الطريق ونبراس الحرم . . لا تكن أقل احتمالا للطاعات ، ولا تمل المسير فى حمل أعباء فرائض ربك . حتى تجنى الثمار « والله عنده حسن المآب » « سورة آل عمران » جد فى الطاعة ، واحذر الغفلة ، حتى يصير الجبر فيها اختيارا . إن الفرائض إذا دفعت إليها بواعث المحبة والإرادة ، كان صعبها يسيرا ، وكان أعظمها ثقلا ؛ أحبها إلى النفس ، تستمرئه نفس المؤمنِ كثمرة طيبة شهية ، لأن المحبة هى الدافعة ، وعندئذ ، يجد الإنسان نفسه عند تأدية الواجب لا يبالى بالأحداث . .

. إن أهون إنسان مكاناً فى الدنيا ، تعلو قيمته ويسمو قدره بالطاعة . أما ذو المكانة المختال المتكبر ، فإنه يَهْوِى من الثريا إلى الثَّرَى إذا غفل عن الطاعة وترك الامتثال . فالطاعة ترفع الوضيع ، والمعصية تذل الرفيع . . ومن يلتزم حدود الطاعة ويقيد نفسه برباطها ، يمكنه يوما أن يسخر الشمس والقمر والنجوم . . فبالطاعة ، قام نظام السموات والأرض وما بينهما حين قال الله تعالى فى سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها ، قالتا : أتينا طائعين) . . »

وحين يتناول إقبال ضبط النفس كمرحلة من مراحل التربية — تربية الذات — نسمعه يقول :

« خذ زمام نفسك بيدك ، لأن الذى لا يملك القدرة على حكم نفسه يكون أقرب استعدادا لتمليكها للغير واخضاعها لحكم الآخرين . . إن الذى يعتز بالحق اعتزاز الجسم بالروح ، لا يُخضع جبينه للباطل أبدا ، مهما اشتد سلطان هذا الباطل . والمؤمن لا يستشعر الخوف إلا من الله . ومن يعش فى حديقة (لا إله إلا الله) يتحرر من كل قيد ، وكل هوًى ، حتى يصير رضا الله أحبَّ إليه من كل شىء . ولقد كان الخليل بصدد أن يذبح ولده إسماعيل لولا أن فداه الله . يُغمض المؤمن العين عما سوى الله ، حتى لتراه فى سبيل طاعة ربه يضع السكين على حلقوم ولده (انظر ماذا ترى؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر) . . إيمان ووفاء ، وطاعة وفداء . . فانقلب العزاء فرحا ، والمأتم عيدا . . وتبقى ذكرى الطاعة ، وضَبْط النفس ، والإيمان والفدائية أبد الدهر ، عماد التربية الذاتية التى لا تعرف الخوف ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . » .

هذا بعض ميراث البيت ، وقبس من تنشئة الأسرة ، حمله « إقبال » معه طوال مسيرته حلالا طيبا ، وكأنه زاد المسافر — وخير الزاد التقوى — أو هو « رأس المال » المبارك بين يدى التاجر الأريب الصالح ، يعمل له ويتعامل به ، فى أمانة وجد وذكاء ، فيربو بفضل الله ويزيد ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .·. !

من البيت ، المدرسة الأولى للطفل — أو هكذا يجب أن يكون — يتجه « محمد إقبال » إلى أولى مراحل التعليم فى مدرسة . والمدرسة هنا —

كما أراد له أبوه — داخل مسجد «حسام الدين» والمعلم : مولانا «مير حسن» ، الذى كان صديقا لوالده فأحفظه القرآن الكريم . ولم يكن الغلام بعيداً عن القرآن ، ولا القرآن غريباً عليه . لكن هذا الأستاذ المعلم ، حبب إليه فهم القرآن وزيَّنه فى قلبه بقدر ما يحتمل ذهن الغلام وتستوعب مداركه . فكأنما أمسك بيده وقاده فى رفق إلى شاطئ البحر المحيط ، وتركه بعد ذلك لقدره ونصيبه : كلما ظمئ شرب ، وحينما استطاع رَوَى الآخرين . إنه شاطئ الحياة والنجاة معا . وفيما بعد ، ينادى الظِّماء واللاهثين فيقول :

ألا قل لمن أمسى وأصبح خاملاً ... أسيرا لزيف الخادعين وما يدرى
أما لك فى القرآن بعث إلى العلا ... وفقهٌ من التقوى وهادٍ إلى النصر
حياتك فى القرآن لو قد عقلتها ... لعشت سعيدا بالحياة مدى العمر

فالقرآن دعاء المؤمن ودعوته وجهاده وسعيه :

أيها الشادى بقرآن كريمْ ... وهو فى ركن من البيت مقيمْ
قم وأبلغْ نوره للعالمين ... قُم وأَسْمِعْه البرايا أجمعين
إن تكن فى مثل نيران الخَليل ... أسْمِعِ النمرود توحيدَ الجَليلْ
من له من نورة الهادى نصيب ... فهو من جبريل فى الدنيا قريب
يا غريبا عن مقام المصطفى ... عُدْ إلى الحق ، تجد نور الصفا

لم ينس «إقبال» أبدا لشيخه المعلم هذا الفضل . .

فى عام ١٩٢٣ ، أراد حاكم البنجاب سير «ادوارد ماكلاجان» أن

يمنح « إقبال » لقب « شمس العلماء » وهو لقب علمى أدبى كبير ، لكن « إقبالا » اعتذر فى أدب وحياء ، راجيا أن يُعطى هذا التقدير لمعلمه الشيخ « مير حسن » فهو أحق به منه ، واعترافاً بفضله عليه فى مدرسة المسجد . . وقد تم له ما أراد ، ومنح « إقبال » أيضا نفس اللقب !

بين المدرسة الأولى فى حياة إقبال ، والمدرسة الثانية – أى بين بيت الأسرة ومدرسة المسجد – رحلةٌ قصيرةٌ لا تبعد فى المكان ، ولا تمتد كثيرا فى الزمان . . ولكنها مسيرة وضّاءة مشرقة ، قادته إلى معرفة نفسه ، ومعرفة ربه :

أنا أعجمىٌّ الدَّنٍّ لكن خمرتى صُنع الحجازِ وكرمِها الفَيْنان
إن كان لى نغمُ الهنود ولحنهم لكنّ هذا الصوتَ من عدنان

فى حُجور النساء شيخ !

خلق الإنسان ضعيفا !

حقيقة يقررها خالق الإنسان والأكوان !

ومن هنا . قد يطمح الإنسان الى القوة ، أو يرهب القوة . أو يحترم القوة . . ولولا ذلك . ما عمر أرضاً ولا حلّق فى سماء . وما أقام حضارة . ولا جمّل فيها بمثل هذا الثراء . .

ومن هنا أيضا . يتفاضل الناس ويتمايزون . ثم هم يتفاوتون طموحا وعزما . من قاطع الحجر فى بطن الجبل . إلى صانع الإمبراطوريات وقاهر الشعوب !

غير أن الناس يختلفون فى وصف وتقدير القوة ، بقدر ما يختلفون إدراكا ومزاجا وفهما لحقائق الأمور . . والشئ الواحد – كالإنسان الواحد -- قد يكون متعدد الجوانب متراكم الأبعاد . فيصعب الحكم له أو عنيه . تفصيلا أو جملة : فقوة الشمس فى حجمها مثلا ؟ أو فى مادتها ،فى ضوئها . أو فى تفاعلاتها وفى مدارها . أو فى تحكمها وجاذبيتها ؟ أو فى كل هذه جميعاً ؟ وقيمة جمالها فى شروقها أم عند غروبها ؟ فى ظهورها الدافئ يوم الصقيع أو عند اختفائها المرتقب فى صيف حرور ؟ . . . هذا بالنسبة لشىء يبدو واضحاً للجميع ، ومطلاً

كل صباح على الجميع . .

فما بالنا إذن لو تناولنا إنسانا من البشر ، هو فى ذاته وبذاته كيان غامض محيِّر ، ما يعرف عنه أقل مما يجْهل وما يبدو فيه أيسر مما يَخفى ، فضلا عن نظرة كل شخص نحوه مَيْلاً إليه أو بغضاً وحسداً له ؟ ! . . ومهما وضع الناس من قواعد ومقاييس ومعايير للحكم على الأشخاص والأشياء ، تظل هى نفسها بحاجة أبدا إلى الإحكام والضبط ، تنقلاً من مكان إلى مكان ، ومن جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر . . والسبب بسيط : لأنها من صنع الإنسان ، الذى خُلق ضعيفاً . . !

وحين تجىء رسالات السماء هداية للناس وتبصرة ، تضع الموازين القسط لكل من فكّر وقدّر ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ! . . فمن مقاييس الحكيم الخبير : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أُوتوا العلم درجات » . فالإيمان والعلم إذن من أصدق المقاييس فى الحكم على الناس والتفضيل بينهم . ولعل رسالة الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – لا تخرج فى أهدافها ومراميها عن : تعليم الناس ، وهدايتهم إلى الإيمان . . فهذا إبراهيم – أبو الأنبياء – فى سورة البقرة يدعو ربه « ربنا واجعلنا مُسلميْن لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » ثم يتبع الخالق سبحانه

ذلك مباشرة تحذيراً واضحا لمن يرفض هذا المنهج والقياس ، منهج الإيمان والعلم (الحكمة) فهو ظالم لنفسه جدُّ جَهول ، فيقول : « ومن يرغبُ عن ملّة إبراهيم إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ . . »

وقصة هذا الفتى المدلل ، الذى التقطه الإيمان فى لحظة صدق من بين سحائب الظلم والظلمات ، وحمله على جناحين من نور : علم وحسن خلق ، قصة جديرة بأن تفسر ما أشرنا إليه ، وتوضح فى حكمة وجلاء . . . وإن مولده ونشأته فى ظروف بيئته وعصره ، لدليل على أن الخير قد ينبت فى ظلال السوء ، وأن الفجر يمحق الظلمات ، وأن مع العسر يسرا . . . ! ألا نقرأ فى سورة الطلاق : « ومنْ يَتَّقِ الله يجعل له مخرجاً . . . » ؟

الليلة الأخيرة من شهر رمضان . . يعقبها فى اليوم التالى بهجة الفطرِ فى العيد . . وياله من عيد . . ! لقد أمسك الناس — مثلما صَامُوا — عن الفرح والزينة منذ أعوامٍ طويلة ، لم يهدأ لهم فيها حال ، ولم ينعموا بأمن ولا سلام . . إنه الزلزال المدمر ، فى صورة فِتَنٍ كقطع الليل المظلم ، وأطماع الجشع والمؤمرات أو قل هى النفس البشرية حين تخلع لباس الإيمان ، وتمزق جدار الخلق الحميد ، فتنطلق بلا قيد وتتجاوز دافعة كل حدود ، وتفعل ما فعلت بالأندلس دُرَّةَ العالم فى ذلك الوقت من عام ٣٦٦ هـ . وقد انقضى يومها أزهى عصور تلك الدولة الفتية بوفاة الخليفة الحكم ابن الرجل القوى المستنير عبد الرحمن الناصر . رَحَلَ بعد أن

حكمَ الأندلس زهاء خمسين عاما ، قضى فيها على الاضطرابات ، وقهر الأعداء والطامعين ، ومكّن للدولة العربية الأندلسية أن ترسخ وتنمو وتزدهر بما يجعلها تزهو وتفاخر بغداد عاصمة الرشيد ، وتفوقها علما وأدبا وفنا وثراء وعمارة وأمنا ورخاء . . يكفينا فقط أن ندخل مكتبة الخليفة الحكم – أعلم الأمويين الذين حكموا وأرجحهم عقلا بلا جدال – ونلقى نظرة على ما تحوى من كتب ومخطوطات ، ونحاول أن نحصيها عدا ، فنجد أنها تربو على أربعمائة ألف مجلد ، كما يؤكد لنا « المقرى » صاحب نفح الطيب !

بموت الحكم ، يبدأ عصر الفوضى والاضطراب وتمزيق الأمة ، لدرجة أن بعض الولاة والطامعين من الحكام السفهاء استعان بأعداء الدولة ليمكنوا لهم فتمكنوا منهم ، وتلك عُقبى الأشرار ! ومن أسف ، أن ما بناه العظماء والمصلحون فى مئات السنين ، أطاح به المخربون فى أيام معدودات ، كان وقعها المخيف على نفوس الناس وعقولهم فوق القدرة والاحتمال .

بدأت تلك الأحداث المروعة الدامية غداة وفاة الحكم ، وإعلان ابنه الطفل هشام المؤيد خليفةً من بعده . ولما كان عمره نحو عشرة أعوا فقد مكنت أمُّه لوكيل أعمالها المنصور بن أبى عامر من بسط يده فى الدو

حتى تولى زمام الأمور ، وأصبح هو الحاكم الفعلى ، يسجن ويسفك وينتهب ويوقع الفتن بين الولاة والرؤساء والقادة وأصحاب الرأى والمكانة ، ويضرب بعضهم ببعض ثم يقضى عليهم جميعا . ثم راح ينكل بالعرب ويصرفهم عن مراتبهم ، ويقدم عليهم الموالى والبرابرة ، فكان عهده الذى استمر سبعة وعشرين عاما فترة مظلمة جرّتْ وراءها سلسلة متتابعة من الفترات التى كانت أكثر ظلما وعنتا وقهرا ودمارا ، حتى جاء يوسف بن تاشفين ، أمير الملثمين ، وأقوى ملوك الطوائف ، ليتولى الأمر بالأندلس ، بل يحكم بحكمة واقتدار وصلاح وإصلاح ، أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب العربى ، ويقيم بها الدولة المرابطية الكبرى .

فى فترة من فترات القهر والفتن المتلاحقة وفى الليلة الأخيرة من شهر رمضان – شهر الصبر والاحتمال – عام ٣٨٤ هـ ، السابع من نوفمبر ٩٩٤ م . يولد على بن أحمد بن سعيد بن غالب بن حزم ، الذى سوف يُعْرف ويشتهر فيما بعد باسم الإمام ابن حزم ، أحد الأئمة الكبار ، الهادين المهتدين بفضل الله وبرحمته .

ولد فى مدينة قرطبة ، بعد صلاة الصبح وقبل شروق الشمس ، كما يحكى هو فى بعض كتبه . . أى أن ميلاده جاء فى الفترة التى تفرق بين الظلمة والنور ، والتى يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود . .

فكأنما هذا الميلاد بشير خير وبركة ، وإيذانا بطلوع فجر على البشر ندىً وضياء . .

وذلك ما كان . . !

إذا قلنا إن هذا الوليد جاء وفى فمه ملعقة من ذهب أو ما هو أثمن من الذهب ، فلا نُغالى . . فأسرته مشهورة فى الأندلس مرموقة ، يقول عنها الفتح بن خاقان : « بنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجد وحَسَب » . وَلِيَ الوزارة منهم أكثر من واحد ، ولهم فى قرطبة جاه ومكانة . يرجع نسبهم إلى رجل فارسيّ يُدعى يزيد ، أسلم ثم كان مولًى ليزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية أخى معاوية ، والذى كان قائدا لجيش الأردن أيام الفتح فى عهد عمر بن الخطاب . رحل مع البيت الأموى إلى الأندلس ، حين اتجهوا إليها ليقيموا بها مُلكا راسخا وطيداً استمر بضعة قرون .

وأبوه : أحمد بن سعيد ، من كبار الوزراء ، ولى الوزارة للمنصور بن أبى عامر ، ثم لابنه المظفر من بعده . غير أنه لم يَسْلَم من الأحداث والمؤامرات والفتن التى دهمت تقريبا كل بيت ، فلقى الكثير من الأزمات ، وتتابعت عليه المحن والنكبات ، وأحرق قصره غير مرة ، ويروى ابن حيان أنه مات مقهورا بعد عز شامخ – ولا عجب : فمن يقترب من سلطان الظلم ، إن لم يَظْلم مثله ظُلم ، كمن يدنو من وهج النار ، لا يسلم من اللسع أو الحريق !

فى القصر – بيت الأسرة العريقة – ولد ابن حزم ، وأشرف أبوه على

تربيته بكل الحب والرعاية . ويذكر لنا ابن حزم في بعض ما كتب ، معلومات كثيرة عن نشأته وتنقل أسرته بين الدور القديمة والحديثة ، وما فيها من أنس وعمران . وفي تلك الدور أو القصور ، تبدأ التنشئة الأولى للطفل ، وهي حقا غريبة مع ما تلاها من مراحل حياته . وهذه الفترة تكشف عن نبوغه وتفوقه ، وإليها يرجع الفضل والأثر الأكبر في صياغته وبنائه على هذا النحو الذي يكاد ينفرد به عن غيره من علماء الإسلام شرقا وغربا على السواء . .

لقد نشأ في حجور النساء من أهل بيته ، وفيهن مربيات عالمات . يقول : « . . ولقد شاهدت النساء ، وعَلِمْتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري ، لأني رُبيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقّل وجهي . وهن علمنني القرآن ، وروّينني كثيرا من الأشعار ، ودرّبنني في الخط . . »

نشأة إذن يَغلِب عليها الثراء والنعمة والرقة والأنس معاً . . أحاديث رقيقة محببة ، وتعامل ينبو عن القبح والغلظة ، وعلاقات تحكمها الطباع السمحة الظريفة ، وتسودها مآثر الأدب السامي والثقافة الرفيعة . . وقد ترك ذلك كله بلا شك تأثيرا واضحا على خلق الرجل وطوّع طباعه طوال حياته التي أتمها وهو عالم جليل ، له مذهبه الذي أجاد فيه واجتهد . . دنا برجال العلوم الدينية جد صارم يفصح غالبا عن خشونة النشأة ،

وتشدد غلاب يكشف عن طول معاناة . .

هذا مثلا نموذج لتعبيره – فيما بعد – عن الإحساس بالجمال ، يفيض عذوبة ورقة ، صاغه شعرا فى الأيام التى سوف يكتب الشعر فيها هوًى وتسلية :

مَنعتِ جمالَ وجهك مُقْلتيّا ولفظك قدْ ضننت به عليّا
أراكِ نذرتِ للرحمن صوماً فلست تكلمين اليوم حيَّا
وقد غنَّيتِ للعباس شعرا هنيئا ذا لعباسٍ هنيا
فلو يلقاك عباسٌ لأضحى لفوزٍ قالياً وبكم شجيَّا

ومن عجب أن هذه النشأة على ما فيها من عزّ وترف وما يشبه العزلة والاعتكاف بين وفرة من الجمال الأنثوى الذى دفعه إلى الكتابة عنه باستفاضة نثرا وشعرا ، لم تجره الى فعل يُشينه أو يُنكر عليه ، وكأنه رأى برهان ربه ، فأعرض قادرا ، عفيفاً مُصاناً وكفاه أن يكون من الشاكرين ! فهو نفسه يعتبر ذلك « من نعمة ربه » إذ يقول :

« . . فلم أزل باحثا عن أخبارهن ، كاشفا عن أسرارهن ، وكنّ قد أنِسْنَ منّى بكتمان ، فكن يُطلعننى على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون مُنَبِّها على عوراتٍ يُستعاذ بالله منها ، لأوردتُ من تنبههن فى السر ومكرهن فيه عجائب تُذْهل الألباب . وإنى لأعرف هذا وأُتقنه . ومع هذا ، يعلم الله ، وكفى به عليما ، أنى برىء الساحة سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحُجزة . . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى

والمستعصم فيمن بقى . . .

ولقد نعلم أنه – فى هذه البيئة والتنشئة المترفة – جاهد نفسه كثيرا حتى تأصل فيه ذلك الخلق الرفيع . وأصبح ملازما له إلى مدى العمر . فها هو يحدثنا – فيما بعد – بصراحته المعهودة فى كلامه : « ولقد ضمّنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان مع امرأة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم . ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتى ضمتها معى لنشأة فى الصبا . ثم غبت عنها أعواما كثيرة . . ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب . ففاض وانساب . وتفجرت عليها ينابيع الملاحة ، فترددت وتحيرت . وطلّعت فى سماء وجهها نجوم الحسن . فأشرقت وتوقّدت . وانبعث فى خديها أزاهير الجمال . فتمت واعتمت فأتت كما أقول :

خريدةٌ صاغها الرحمن من نور	جلّت ملاحتها عن كلّ تقدير
لو جاءنى عملى فى حُسنِ صورتها	يوم الحساب ويوم النفخ فى الصُّور
لكنتُ أحظَى عبادِ الله كلِّهمُ	بالجنَّتين وقُرْب الخُرَّدِ الحُوُر

وكانت من أهل بيت صباحة . وقد ظهرت على صورة تعجز الوصّاف ، وقد طبّق وصفُ شبابها قرطبة . فبتّ عندها ثلاث ليال متوالية ، ولم تُحجب عنّى – على جارى العادة فى التربية – فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسىّ الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفا على لُبّى أن يزدهيه

الاستحسان . ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تُتعدى الأطماع اليهن . ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل . وفى ذلك أقول :

لا تتبع النفس الهوى ودع التعرض للمحن
إبليس حيّ لم يمت والعين باب للفتن

يبلغ الفتى سن الشباب . . والشباب طموح وانطلاق وفتوة . فأى طريق يسلك ؟ . . لو سار فى دروب المتعة واللهو وزينة الحياة الدنيا . فلا غرابة أن يفعل . ولو سلك دهاليز السياسة وارتقى معارجها أو جابه معاركها . فلا ينكر ذلك عليه . وأبوه خاض أمواجها من قبل ومن بعد . وصارعها حتى صرعته . .

غير أن المرء تدفعه أقداره كما يُسخَّر هو لصنع قدره . . فكل ميسّر لما خُلق له . . اختار طريق العلم والفقه . وأجاء هذا الاختيار نتيجة لمصادفة مخجلة مضحكة فى آن واحد !

عندما كان فى سن السادسة والعشرين كما يقول عن نفسه لم يكن يدرى كيف يتم صلاة من الصلوات ! ! وفى ذات يوم ، شهد جنازة رجل من أصدقاء أبيه . فدخل المسجد قبل صلاة العصر . فجلس ولم يركع (أى لم يصلّ ركعتين تحية المسجد) فأشار إليه أستاذ معلم بالمسجد أن قم وصل تحية المسجد . فلم يفهم ما يعنى ، فقالَ رجل يجلس بجواره (ساخرا) : أبلغتَ هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ ! . يقول ابن حزم :

« فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد ، فبادرت بالركوع . فسمعت صوتا يعنّفنى أن : اجلس ، اجلس ، ليس هذا وقت صلاة : فانصرفت وقد خزينى ولحقنى ما هانت علىّ به نفسى . وقلت للأستاذ (المعلم) : دُلّنى على دار الفقيه المشاور أبى عبد الله بن دحون . فدلنى . فقصدته من ذلك المشهد ، وأعلمته بما جرى فيه وسألت الابتداء بقراءة العلم ، واسترشدته فدلّنى على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضى الله عنه ، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالى لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتى عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام ، وبدأت بالمناظرة . » . !

رواية أخرى تقول ، إنه حضر مجلس فقه لابن واجب ، فاشترك فى المناقشة ، واعترض على بعض الآراء التى طُرحت ، فقال أحد الحاضرين : لا شأن لك بهذا . فقام ودخل بيته ، وظل فيه عاكفا لا يكف عن القراءة والحفظ ، وما خرج إلا بعد شهور يجلس للمناظرة ، فأجاد وأحسن !

وسواء كانت هذه الواقعة أو تلك ، فالواضح أنهما تدلان على حياء شديد ، وحسّ مرهف ، واحترام للنفس فى ثقة وعفاف . . اكتسبها من بيئته التى نشأ فيها والتربية التى شب عليها . . لقد واجه موقفا كشف عن نقص فيه ، أو أظهره عاريا على ملأ ، فأراد أن يستتر سريعا بأزهى رداء وأجمله ، فكان رداء العلم والتقوى . . أو قل هو التحدى السامى

النبيل ، يفجأ أصحاب الكرامة والإرادة والهمم ، حين يقفون فى مواجهة أنفسهم ، وقد استبان ما فيها من وهن أو خور ، فسرعان ما يحاسبون أنفسهم حسابا عسيرا ، ويزنون أعمالهم بميزان صدق لا يحيف ، فيبدلون ضعفهم قوة ، وخوفهم أمنا وعجزهم قدرة وهؤلاء هم أولو العزم الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين . وقد بين بعض صفاتهم فقال : « . . تذكروا ، فإذا هم مبصرون »

يقول ابن حزم :

أقول لنفسى ما مُبينٌ كحالكٍ ... وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكِ

صُن النفسَ عما عابها وازفضِ الهوى ... فإنّ الهوى مفتاحُ بابِ المهالكِ

رأيتُ الهوى سهل المبادي لذيذها ... وعُقباه مُرُّ الطعم ضَنكُ المسالكِ

ومَنْ عرفَ الرحمنَ لم يعْصِ أمرَهُ ... ولو أنه يُعْطَى جميعَ الممالكِ

سبيلُ التُقى والنسْكِ خير المسالكِ ... وسالكُها مستبصرٌ خيرُ سالكِ

فيا نفسُ جِدّى فى خلاصِك وانفذى ... نفاذ السيوفِ المرهفاتِ البواتك

فلو أعملَ الناسُ التفكر فى الذى ... له خُلقوا ما كان حىٌ بضاحكٍ !

ذاك حديث النفس ، وخلاصة التجربة الشاقة والموقف الصعب الذى وقفه يوما ابن حزم ، فاستثمره وأطعم من ثمره علما وفقها وتُقى ونوراً ، كما يأبى الله إلا أن يتم نوره . .

ثم يأتى دور الصديق الصادق الأمين . . وحقا ما قيل : اصحب من يُنهضُك حاله ، وتدلُّك على الله فعاله ، إذا نسيتَ ذكّرَك ، وإذا ذكرتَ

أعانك . ولقد صحب ابن حزم فى رحلته الطويلة مع المعرفة والعلم ، صديق مستقيم النفس والخلق ، هو أبو الحسين بن على الفاسى ، كان فى منزلة الأستاذ لابن حزم فى التربية وحسن الخلق . يعترف بفضله عليه وبفضائله فيقول : « وكان أبو الحسين عاقلا ، عاملا ، عالما ، ممن تقدم فى الضلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد فى الآخرة . وما رأيت مثله جملة علْماً وعملاً وَديناً وورعا . فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمنى موضع الإساءة وقبح المعاصى » .

إن العرب ليتناقلون تلك الحكمة المأثورة . . اسأل عن الصديق قبل الطريق » وتلك نعمة أخرى سيقت لابن حزم : صديق من هذا الطراز المتميز ، ومن أجله – أغلب الظن – أفاض ابن حزم فيما بعد ، فى الحديث عن الصديق المخلص فيقول :

« . . ومن الأسباب المتمناة فى الحب ، أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقا مخلصا ، لطيف القول ، بسيط الطوْل ، حَسن المأخذ ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخافة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابرا على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارها للمباعدة ، نبيل المدخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفا بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سريّ الأعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ،

مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدْس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، طاهر الغناء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الانقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقا بالصبر . . وأين هذا ؟ (وحقيقة نحن معه نسأل : وأين هذا ؟ !) فإن ظفِرت به يداك ، فشدّهما عليه شد الضنين وأَمْسكْ بهما إمساك البخيل ، وصُنه بطارفك وتالدك (أى بما تملك من جديد وقديم) فمعه يكمل الأنس ، وتنجلى الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال . ولن يفقد الإنسانُ من صاحب هذه الصفة عونا جميلا ، ورأياً حسنا . ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراءَ والدخلاءَ كى يخففوا عنهم ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهض « أى باهظ) الأحمال . . » .

تفرغ ابن حزم لرسالة العلم ، وجعلها زاده ، وأفرغ فيها همه وجلس يستمع ويتعلم من شيوخ وعلماء كثيرين ، وقرأ الفقه على أساتذة أجلاء : منقطعين للعلم لا يشترون به ثمنا قليلا ، فكانوا فى الدين قدوة ، وفى الدنيا قادة . منهم من كان يهتم بالأدب . مثل الشيخ الجعفرى الذى أحفظه معلّقة طرفة بن العبد وشرحها فى مجلسه بالمسجد الجامع بقرطبة ، ومطلعها :

لخولةَ أطلالٌ ببُرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليدِ

وقوفاً بها صَحبى على مطيّهم يقولون لا تهلك أسىً وتجلدً

وتنتهى بتلك الأبيات :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غد
ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّد
لعمرك ما الأيام إلا مُعارةً فما اسطعت من معروفها فتزوَّد
عن المرء لا تسألْ وأَبْصِرْ قرينَه فإن القرين بالمقارن مُقتدِ
لعمرك ما أدرى وإنى لواجلٌ أفى اليوم إقدامُ المنيةِ أم غد؟
فإن تك خَلفى ، لا يَفُتْها سواديا وإن تكُ قُدامى أجدْها بمرصَدِ

وقد نستغرب من شيخ جليل مثل الجعفرى أن يتناول فى مجلسه بالمسجد قصائد وأشعارا يفيض فى شرحها وتلاوتها على تلاميذه والحاضرين . ولكنها كانت الأندلس وقرطبة بالذات ، العامرة بكل فن ولون من ألوان المعرفة تتناقلها الألسن ، وتتجاذبها المجالس والمنتديات ويبدو أن تأثير المادة والمعلم ، كان نافذاً بليغا ، دفع ابن حزم إلى حُبِّ الشعر وإجادة قريضه فى تمكّن وأناقة ، للتعبير عن وجدان صادق ، ونفس فياضة بالصور والأحاسيس .

وبلغ به التمكن فى صياغة الشعر ، أن كتب يقول :

« ولقد عرض لى فى الصبا هجرٌ مع بعض من كنت آلف — وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود — فلما كثر ذلك . قلت على سبيل المزاح شعراً بديهيا ، ختمت كل بيت منه بقسْم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلّقة . . وهو :

تَذكرتُ وُداً للحبيب كأنه ... لخولة أطلال بِبُرقة ثهمدِ
وعهدى بعهدٍ كان لى منه ثابتٍ ... يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقَفتُ به لا موقنا برجوعه ... ولا آيسًا أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عَذْلى وأكثروا ... يقولون : لا تَهْلِكْ أسًى وَتجلَّد
كأن فنون السُّخط ممن أحبُّه ... خلايا سفين بالعواصف مِن دَدِ
كأن انقلابَ الهجر والوَصْل مركبٌ ... يجوز به الملاح طوْرا ويهتدى
فوَقْت رضاً يتلوه وقتُ تسخط ... كما قَسّم الترب المفايل باليد
ويَبْسَمُ نحوى وهو غضبانُ مُعرضٌ ... مُظاهر سِمْطى لؤلؤ وزبرجد

ولئن اتخذ الشعر مادة للتسلية وإظهار المقدرة ، فقد أقبل بشغف وصبر وجلد على العلوم الأخرى التى سمت به وارتقت . فكان من شيوخه عبد الرحمن بن يزيد الأزدى الذى تعلم منه القرآن والنحو واللغة . وتعلم الحديث من قاضى بلنسية أبى بكر المصعب . وعلمه آخرون فى حلقاتهم علوم الشريعة وفنون الأدب . . ولم يبخل على العلم بوقت أو جهد أو مال . . بل إنه لم يجد غضاضة فى الرحيل من أجل العلم إلى الشرق ، حيث لقى شيوخ العراق ، وأقام بالشام زمنا يدرس ويبحث وينقب . وأدى فريضة الحج قبل أن يعود . .

وطالب العلم - مهما بذل أو أنفق - لا يكون أحدوثة بهذا البذل ، ولا يأتى عجبا لو أنفق . إلا إذا كان أحدا فردا يعيش بين جهلاء لا يحفلون بعلم أو معرفة فينكرون عليه ما يفعل . . وعهدنا بالأندلس العربى

آنذاك ، بحرا فياضا بالعلوم والفنون والآداب والمعارف ، موجات تفوق الحد والحصر . . وإنما العجب يداخلنا عندما نقف على سيرة ذلك الرجل الفذ ، الذى رُبّى فى النعيم ، وغُذى بالنعمة ، ثم تتنكبُ له الدنيا ولأسرته ، وتتقلبُ بين السجن والاعتقال والإغرام الفادح - وهذا شأن السياسة ولعبتها فى عصور الظلام والمحن - إلى أن يموت أبوه الوزير وهو على هذه الأحوال . . خُرّبت ديار الأسرة ، ونهبت ثروتها ، وطمست معالمها . ولما تغير الزمان وتبدلت المكانة والمكان ، عبس الرفاق وتفرق الأخدان . فارتحل ابن حزم يطوف بالبلاد ، باحثا عن أملٌ ، ملتمسا لنجاة ، متنقلا بين المرية وشاطبة ، وبلنسية ثم قاصدا لابن عباد بأشبيلية مقيما فترة بجزيرة مايورقة ، ويغادرها خوفا وحزنا من تآمر علمائها عليه وكيدهم له . . يتجه إلى القيروان ، وبعدها يعود إلى الأندلس . . وبرغم ذلك كله ، بل فى غمرة ذلك كله ، لا يكف عن العلم والدراسة والتحصيل والكتابة والتأليف والمحاضرة والمناظرة ، فى إيمان راسخ وعزم لا يكل ولا يلين ، وكأنه بهذا العلم الوافر ، والخلق الحسن ، والصبر الجميل ، يشتد ويقوى فى مواجهة الأزمات وشرور الناس . فارتفع بإيمانه وعلمه مكانا عليا : بلا طمع لدنيا أو عرض . . بل كما قال هو فى حواره مع الشيخ الباجى وكان واحداً من كبار علماء الأندلس . .

قال الباجى : أنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت مُعان عليه ، تسهر بمشكاة من ذهب ، وأنا طلبته أسهر بقنديل من السوق .

فكان جواب ابن حزم فى أدب وإفحام : هذا الكلام لك .
عليك . لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى تلك الحال . رجاء تبديلها بمثل
حالى . وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته (من الثراء والنعمة) فلم
أرْجُ به إلا علوَّ القدر العلمى فى الدنيا والآخرة .

بكل العزم والإخلاص والصدق إذن . انصرف ابن حزم إلى العلم
والفقه . يأخذ نصيبا موفورا . لا يرجو من الدنيا مأربا أو مَغْنماً . . ومَنْ
أخْلَص النية لله . تقبل الله منه وأجزل له العطاء ، إنما يتقبل الله من
المتقين ، (سورة المائدة) وبعدها . تفرغ ابن حزم لنشر العلم بين الناس .
هاديا . وداعيا إلى الله على بصيرة . . وما أصدقه إذ يقول :

مُنَاىَ من الدنيا علومٌ أَبُثُّها وأَنْشُرها فى كل بادٍ وحاضرِ
دعاء إلى القرآن والسنن التى تأسَّى رجال ذِكرها فى المحاضر

وقبل أن نمسك عن متابعة رحلة الزمان والأحداث . مع هذا الرجل
النادر المثال . والشيخ الفقيه الذى جابه الأهوال . يجب ألا نغفل صفة
أخرى من أبرز صفاته التى حسبها معه منْ بيْتِ النشأة الأولى . وظل
مُلازما لها لم يفارقها أبداً ولم تفارقه . ألا وهى : الوفاء فى عزة نفس .
إلى جانب استقلال التفكير . والتواضع الموصول بالسخاء الشديد
والكرم . فى كل حال .

وأصحاب الوفاء العزيز هم ريحانة العصر . وكل عصر . فقليل قليل
هم ! لأن الوفاء كما قال ابن حزم : . لَمِنْ أقوى الدلائل وأوضح

البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات :

أفعال كلّ امرئٍ تُنْبى بِعُنْصره والعينُ تغنيكَ عن أنْ تَطلبَ الأثَرا

وكما أن النار تكشف عن صلابة المعدن وأصالة المادة ، أو طيب أعواد البخور . فكذلك الأزمات والمحن ، يتميز فيها الخبيث من الطيب . والرياء من الفداء ، وَالْخِسَّة من الوفاء . ومن كان عفيفا عزيز النفس كريماً ، لابد وأن يكون ذا وَفاءٍ صادقٍ فى السَّرَّاء وفى الضراء . يقول :

« لقد منحنى الله عز وجل من الوفاء (لكل من يمتّ إلىّ بِلُقْية واحدة) حظًّا أنا شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وماشيء أثقلُ علىّ من الغدر . ولعَمرى ما سمحت لنفسى قط فى الفكرة فى إضرار من بينى وبينه أقلُّ ذمام وإن عظمت جريرته . وكثرت إلىّ ذنوبه . وقد دهمنى مِنْ هذا غيرُ قليل . فما جزيت على السُّوء إلا بالحسنى ، والحمد لله على ذلك كثيرا . . »

بل إن هذا الوفاء الصادق م ينصرف إلى الناس وحَسْب بل يتراءى حنينا إلى الأماكن والأشياء . يقول :

« فما نسيت وُداً لى قَطّ ، وإن حَنينى إلى عهد تقدم ، لَيَغَصُّنى بالطعام ويُشرقنى بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه صفتة . وما مللتُ شيئا بعد معرفتى به . . وما رغبتُ فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مُذ

كنت ، لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم ، لكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ، ومركوب ، ومطعوم »

لقد كان ابن حزم بحق ، قطعة من الأندلس ، ونجماً فى سمائه . غير أنه تجاوز الزمان وتخطى المكان . فقد مضت القرون من بعده ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، وبقى ابن حزم كما هو : سيرة تروى ، وفكرا يضىء للسالكين ، وإنه لذكرى : ولعلها تنفع المؤمنين !

آه . . آه . . يا عينى !

إذا سمعت هذا النداء المستغيث يتردد عاليا مثنى ، وثلاث ، ورباع . . فلابد وأن تنصت لتتبين حقيقة أمر صاحبه : أعاشق مقروح ؟ أم دامع مجروح ؟ ! . أهو صَبٌ أرقّه الوجْد والشوق أطربه ، فراح يغنّى أو يترنم بمناجاة الحبيب المرتجى ، أم هو مريض يئن ويتأوه من ألم فى عينيه ، فطفق يصرخ شاكيا همّه وحزنه إلى الله وإلى الناس ؟ !

وإذ نسترق السمع من وراء ألف عام أو تزيد ، ونصغى إلى صوت يطلق نفس النداء المستغيث فى سكون الليل بمدينة « الرىّ » القريبة من طهران ، نطرب لسماعه أولا . . فهو نداء واله شجىّ . . ثم نمضى أعواما مع الزمن ، لنسمع نفس الصوت من جديد ، ولكنه فى هذه المرّة بكاء اليائس الحزين . . ونعجب لو عرفنا أن صاحب الصوت فى الحالين واحد . . وأن الأربعين أو الخمسين سنة الفاصلة بين النداءين قد حولت صاحب الصوت من مطرب شاب مغمور ، إلى واحد من أرق وأشهر علماء الطب فى الدنيا على الإطلاق ! ولعل صورته الباقية إلى اليوم ، والتى تخيلها رسام شهير ، ووضعوها فى صدر القاعة الكبرى بمدرسة الطب بباريس ، لعلها تُخفى الكثير ، وربما لا تُبرز – سواء طوعا أو كرها – إلا معنى الشكر والتقدير والعرفان ، للشعب العربى الأصيل ، الذى أنجب :

أباً بكر محمد بن زكريا الرازى !

لم يقع فى ميلاده وطفولته وصباه ، ما ينبئ عن نبوغ فيه أو تفوق . بل عاش هذه الفترة من حياته — فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى — كغيره من أقرانه ، بين أهله وعشيرته ، وكانوا قوما أشداء ، يتميزون بطول فارع ، وشعر أشقر ، وصلابة أهل الجبال ، مع حدة الطبع وعزم الإرادة وخفة فى الحركة . ومن هنا كان العرب يسمونهم «الثعالب الحمراء» .

فى المدرسة تعلم ، كأى غلام فقير يعيش تحت المظلة العربية الإسلامية . فالتعليم متاح بلا أجر للجميع ، لم يعد وقفا على طائفة أو طبقة . بل هو — ولأول مرة فى تاريخ البشرية — حق للفقراء قبل الأغنياء ، وزاد لهم وشفاء . . وأول طريق العلم : المسجد . وفى المسجد ، تعلم الرازى حب اللغة العربية ، فأقبل عليها ، ، فلما كبر قليلا أبدى اهتماما بدراسة الفلسفة والرياضيات دون أن يشارك فى المناقشات الفكرية التى كانت سائدة حينذاك ، وحيث كانت بلدته «الرىّ» فى خراسان معقلا من معاقل أهل السنة .

لقد كان الفتى الرازى مشغولا بأمر آخر : بتعلم الموسيقى ثم الغناء . وحقق بالفعل بعض الشهرة كعازف ومغن . وكاد أن يمضى قدما فى هذ الطريق ، لولا أن الإنسان يتبع قَدَره وإن لم يكن يدرى ! . .

فى سن الثلاثين ، يخلو قليلا إلى نفسه ، فى ساعة من تلك الساعات

الوضاءة المباركة ، التى يَحْظى بها الإنسان على حين غفلة ، فإن أمسك بها وانتبه واستبصر ، سعد وظفر. وإنها لحكمة بالغة ، أن يعى المرء – للدين والدنيا معا – مغزى قول النبى ﷺ : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم » .

فى ساعة المحاسبة مع النفس ، حاول الرازى أن يزن عمله ، وأن يقيّم مسعاه ، فأدرك دون عناء كبير ، أنه ضائع مضيِّع : وقته ضائع وجهده مضيَّع . . وشعر أن حالة من الرتابة فالكآبة فالملل ، تسود حياته وتميد طاقاته ، وهو مازال بعد فى سن الشباب الناضج . إنه لظالم لنفسه إذن لو تمادى فى هذا العبث وإن ضمن له بعض الشهرة والمال - وخير له أن يرجع من قريب .

ولسنا نعرف على وجه اليقين ، هل وضع فى حساباته قول الشاعر المتنبى : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » ؟ . إلا أنه عزم على أمر سوف يكشف عن طموح الأفذاذ من الرجال ، وقدرة أصحاب الهمم الشوامخ ، تماما كهذه القمم الجبلية السابقة التى تحيط بمدينته « الرىّ »

حمل بعض متاعه ، وخرج مع القافلة التى تغادر البلدة ، مهاجرا بأحلامه إلى أرض الله الواسعة . وقد حفظ صغيرا فى مدرسة المسجد ، أن خاتم الأنبياء ﷺ خرج من بلدته الأثيرة إلى نفسه – مكة – مهاجرا إلى الله تعالى ، وأن بعض الرواة نسبوا إليه قولا مشهورا جاء فيه : « الله يعلم أنك أحب البلاد إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك

ما خرجت » ! . فلتكن هجرة إذن إلى بغداد ، عاصمة الدنيا حينذاك ، ومدينة العلم والأمل والطموح . . أليس العلم فريضة وجهاداً ؟ ! .

وأغلب الظن ، أن رجلنا – أبا بكر الرازى ، حاور نفسه طويلا إلى حد المعاناة قبل أن يخلص إلى هذا القرار . . فالطريق إلى بغداد شاق بعيد . . ولو كان الأمر مقصوراً على مزيد من دراسة أو علم أو صنعة ، فإنه لن يعدم بغيته فى مدينة « الرىّ » أو فى مدينة قريبة بخراسان حيث يكرم طلاب العلم ويبجل العلماء ، مثلما يكرمون ويبجلون فى حواضر أخرى بالعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وهذه على وجه اليقين « مرو » شامخة غير بعيد : فى كل جامع كبير بها مكتبة ، وفى كل شارع تقريبا مدرسة ، وتنتشر فى أحيائها العامرة اثنتا عشرة خزانة للكتب (مكتبة عامة) تضم الواحدة منها نحوا من اثنى عشر ألف مجلد طبقا لما ذكره ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان . هذا فى الوقت الذى كانت فيه المكتبة الكبرى بكاتدرائية مدينة كنستانز مثلا لا تحوى سوى ثلثمائة وستة وخمسين كتابا . .

ولقد بلغ من حرص الناس على العلم وعلى الكتاب ، أن واقعة حدثت فى ذلك الحين ، وتناقلتها الألسن : ذلك أن بعض اللصوص سرق دار الوزير أبى الفضل بن العميد بالرىّ ، وانتهب كل ما فيها من مال وأثاث ، فلما دخل الوزير البيت ، لم يجد شيئا يجلس عليه أو إناء يشرب فيه . فسأل مذعورا خازن كتبه ابن مسكويه – المؤرخ فيما بعد –

هل سرق اللصوص من خزائن كتبه شيئاً ؟ فلما طمأنه ابن مسكويه وأخبره أنها بحالها لم تمس سُرّ عن الوزير وانقشع غمه ، وشكر الله الذى أنقذ كتبه وفيها من كل العلوم والحكم والآداب «وهى التى لا عوض عنها» كما قال ، أما سائر الأشياء فأمرها هين ميسور !

إنه إذن القدر المقدور ، والحلم البراق المتوهج فى خيال الشاب الطموح النازح إلى بغداد . .

ويالها من مدينة تستثير الخيال ! . .

عاصمة الخلافة ومستقر أمير المؤمنين ، الذى يذكر اسمه من فوق المنابر مع كل صلاة جامعة ، حيثما امتدت مظلة سيادته وعدله : من فزغانة وأقصى خراسان شرقا ، إلى طنجة غربا ، وإلى عتبات قصره المهاب ، يأتى الولاة والأمراء والعلماء والرسل ، يحملون إليه فاخر الهدايا فيمنحهم ما يجود به من رتب وألقاب . . فلا غرو إذن ، أن يجلس أمير المؤمنين مسترخيا على أريكة وثيرة موشاة بالذهب فى حديقة قصره ، ويرقب سحابة عابرة فى السماء ، فيخاطبها مزهوا باقتدار ويقول : «شرّقى أو غرّبى ، فأينما أمطرت فلسوف يأتينا خراجك» !

فى المقابل ، كانت أنظار الملايين من الشرق ومن الغرب ، ترنو إلى بغداد ، تستحث عزائمهم سعيا إليها . وفى الوقت الذى كان المواطن الأوربى لا يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه من التجوال فى إقليمه أو بلده الصغير المحدود ، كان المسلم — وكل من يعيش فى حمى الإسلام — يتنقل

داخل حدود هذه المملكة الشاسعة الجامعة ، مملكة الإسلام كما يسميها المقدسى والمسعودى ، يقطعها لو أراد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب فى نحو عشرة شهور متصلة ، وهو آمن حر طليق ، فى ظل دينه وتحت رايته . وأينما حل أو ارتحل ، وجد الناس يعبدون ربه الذى يعبد ، ويقيمون الصلاة التى يصلى ، ويتكلمون اللغة التى يفهم ، ويحتكمون إلى القانون الذى يعرف . . . أعراف واحدة ، وتقاليد وعادات سائدة لا تكاد تختلف . . فهو إذن يمشى فى أرجاء وطن واحد ، تضبطه شريعة واحدة يتساوى فى ظلها الجميع ، وفى رحابها يتحقق الأمن والحرية والسلام . .

فى بغداد ، كما فى غيرها من المدن الكبرى ، وعواصم الولايات والأقاليم ، كانت دور الكتب ودور العلم مملوءة بالطلاب والزوار والمقيمين « لا يُمنع أحد من دخولها » كما يحكى لنا المؤرخون . وكثيرا ما كان يلحق بدور العلم « مساكن للغرباء الذين يطلبون العلم ، وتُجرى لهم الأرزاق » . وفوق ذلك ، كان فى المكتبات وفى دور العلم « ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والمحابر والأوراق . . . » .

كان جامع المنصور ببغداد ، وهو أقدم مسجد جامع بها ، أشهر مركز للتعليم فى الدولة الإسلامية ، لا يدانيه إلا المسجد الجامع بالقاهرة ، الذى أحصى المقدسى مجالس العلم فيه وقت صلاة العشاء ، فوجدها مائة مجلس وعشرة متجاورة ! ! .

يصل الرازى إلى بغداد . . وها هو يتجول فى أحياء المدينة ، ويتنقل بين مجالس العلم والدرس فيها . ومرة أخرى يهديه قدره إلى دراسة الطب . . ولا أحد يدرى على وجه اليقين ، أى الدوافع التى زينت له سلوك هذا الطريق . . وما هى الصلة بين احتراف فن الغناء والألحان والموسيقى والتطريب ، وبين تعلم فن الطب والجراحة والعقاقير والتطبيب . إلا إذا كانت صلة تبغى العناية بالحنجرة واللسان والأحبال التى تصدر الأصوات ، وبالعقل الذى يعى ويؤلف ويبدع ويبتكر . ولقد اعتاد الناس أن يسمعوا عن طبيب يهوى الموسيقى ، أو صيدلى حسن الصوت ، ولكن من غير المألوف ولا المعهود أن ينخرط العازف المغنى المحترف فى زمرة الأطباء الحكماء ، بعد تجاوز سن الثلاثين أو الأربعين . . غير أن هذا بالفعل ما كان !

أقبل الرازى بحماس وشغف على هذا العلم الجديد ، واستوعب فى سرعة ونهم فنون الطب والعلاج الإغريقية والفارسية والهندية ، ثم العربية الوليدة الناشئة . وبعد أن عب من هذا المنهل وارتوى ، آثر أن يعود إلى بلدته ومسقط رأسه ، ليضع خبرته الجديدة فى خدمة أهله وعشيرته وفقراء مدينة « الرى » . ويستمر فى عمله ، يؤديه بأمانة وكفاءة واقتدار ، إلى أن يُختار مديرا لمستشفى المدينة .

ومرة أخرى تنتابه حالة القلق والحوار مع النفس : هل توقف الطموح والأمل عند هذا الحد ؟ ألم تهيئ الظروف – بل الأقدار – أمامه سبلاً

لاكتشاف بعض طاقاته وقدراته ، وأخرجت من كنز العطاء الإلهي ، وهو الوديعة في كيان الإنسان ، فيضا طيبا فيه شفاء للناس ؟ . . غير أن أصحاب الهمم العالية لا يتوقفون عن الارتقاء والسعي ، دون تراخ أو كلالة أو وهن . . ألم يحفظ في صباه من القرآن الكريم : (فإذا فرغت فانصب) ؟ !

فالآن ، يعود إليه فراغ داخلي يحس به دون سواه ، وإن توارى خلف المنصب والمكانة والعمل المتواصل الأمين . ويزيد من وطأة الإحساس بثقل هذا الفراغ ، أن الرازي بطبعه وخلقه ، عزوف عن جمع المال واستجلاب الشهرة والجاه . فلزاما عليه ، أن يكد وينصب على نحو ما يفعل العظماء من الرجال . وإذا كان للعظمة في الرجال موازين ومقاييس ، فلابد وأن يكون من بينها التفوق المستمر العفيف ، مع العطاء الراقي المتواصل ، الذي لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً .

وحسب الرازي طبيبا أن يكون عظيما بين الرجال لو كان يتميز فقط بتلك الصفات التي يوزن بها الصفوة من الحكماء والأطباء . فما بالنا وهو يملك الكثير غيرها بلا تصنع ولا افتعال !

دليلنا على ذلك ، أنه لما طلب للعمل رئيساً لأطباء المستشفى الكبير بالعاصمة بغداد ، وتفتحت أمامه أبواب قصور الأمراء والأثرياء ، ومنها قصر الخليفة ذاته حيث عين طبيبا خاصا له — لم يركن إلى أبهة المناصب ولم يحفل بما اجتمع له من هدايا وأموال . بل نراه ينفق هذا المال كله —

إلا قليلا منه – على الفقراء من المرضى وأصحاب الحاجات . إن شغله الشاغل ينحصر فى المزيد من العلم ، والمزيد من التجريب والاستنباط ، والمزيد من النجاح فى معاركه المستمرة مع المرض .

يصبح الرازى اسما مشهورا على كل لسان ، فى طول البلاد وعرضها . . إليه يأتى وفود الأطباء والتلاميذ من كل أرجاء الوطن العربى الكبير ، يتلقون المعرفة الطبية المتقدمة ، على يد هذا الحكيم الفذ : فهو المرجع والحجة ، وهو الأستاذ المفسر . . وفوق ذلك : هو الحكيم الإنسان . . !

من اليسير أن تصادف رجلا يتميز باطّلاع واسع على جوانب من المعرفة ، أو بدراية كاملة بدقائق عمله ، فى سرعة إنجاز مع حسن أداء . وعندئذ قد ينال نصيبا من إطراء الناس وإقرارهم بمقدرته ، وإن لم يسلم من مثالب دعيٍّ أو وشايات حسود . لكن ، أن تجد هذا الرجل البارز التفوق ، محبوباً مبجلاً من الكثيرين ، مُحاطا بالود والاستحسان أينما حل ، خاصة من البسطاء والفقراء الذين لا يُجيدون نفاقا ولا مراءاة ، فهو بلا ريب يضيف صفات «إنسانية» إلى مجموع سجاياه . .

هكذا ، كان الرازى وهو فى أوج شهرته ونجاحه وتفوقه : أحاط بمعارف طبية واسعة شاملة ، لم تجتمع فى أحد قط منذ أيام جالينوس . ومع ذلك ، ظل نهما للمعرفة ، فى سعى دائب لها وبحث دائم عنها ، سواء فى المخطوطات والكتب ، أو بالاتصال بالحكماء والعلماء ، أو فى

المعامل وتجارب الكيمياء . أو عند أسرة المرضى ، فكان الموسوعى الشامل ، الذى استوعب كل معارف سابقيه فى الطب . ثم أضاف إليها وقدّمها أحسن تقديم للبشرية جمعاء . وهو الطبيبُ المعلم . الذى قدم للعلم وللعلماء منهج التجربة والملاحظة فى الكيمياء والطب . بنظام رائع ووضوح يستحق الإعجاب . وهو العالم القدير الشجاع . الذى تصدى – فى صلابة وحزم – لشعوذة أدعياء العلاج والدجالين الذين يوهمون الجهلاء بطرد الشياطين من أجسام المرضى المعذبين بالأوجاع والعلل .

وبينما كان أبو قراط – الذى يلقبونه بأبى الطب – يعرّف الطب بأنه « الفن الذى ينقذ المرضى من آلامهم ويخفف من وطأة النوبات العنيفة ويبتعد عن معالجة الأشخاص الذين لا أمل فى شفائهم » ، نرى الرازى يقفز قفزة إنسانية رائعة ، بدافع من إيمانه وعقيدته ، إذ يقرر : إنه لواجب محتوم ، أن يبذل الطبيب قصارى جهده فى علاج المرضى الذين فقدوا الأمل فى الشفاء . كما هو لزام عليه ، أن يوهم المريض بالصحة ويرجّيه بها ، مهما كانت خطورة حالته ، حتى ولو لم يكن الطبيب ذاته واثقا من ذلك . لأن « مزاج الأجسام مرتبط بمزاج النفوس » . . (أليس الطب الحديث المعاصر ، يؤكد باستفاضة ، أن الحالة المعنوية النفسية للمريض جزء من العلاج ؟ !) .

وكثيرا ما كان الرازى العظيم يقول صراحة : إن الذى يتعامل مع الجسم البشرى – أجمل مخلوقات الله فى الحياة الدنيا – مطالب بأن يكون

الحب رائداً له فى عمله . إنه قانون أخلاقى نبيل ، يصدر عن ضمير المجتمع العربى الذى صقله الإسلام وهذبه ورباه . وفى تطبيق هذا القانون ، كان مبدعه — الرازى — خير مثال وقدوة . وقد نذكر هنا ، تأكيداً وتطبيقا لهذا القانون الإسلامى ، أن مرضى الأعصاب مثلا فى الحالات المستعصية والخطيرة ، كانت تقام لهم العيادات المنظمة والبيمارستانات ، زادت وانتشرت فى كل بلاد العرب تحت مظلة الإسلام وكان بعضها — كما فعل عرب الأندلس — يسمى باسم : « مستشفى الأبرياء » ، يجدون فيه العناية البالغة ، والمراقبة الصحية الرحيمة ، والإشراف العلاجى المجانى المستمر . بينما كان أمثال هؤلاء — فى ذات العصر ، بل حتى القرن التاسع عشر الميلادى — يعاملون فى أوربا وفقا للقانون الطبى السائد هناك والذى ينص على « أنه لعمل لا « أخلاقى » أن يغفل الطبيب عن توجيه مريضه الميئوس من علاجه والمشرف على الهلاك وإبلاغه بمصيره حتى يتوجه إلى الله ! وللطبيب أن يعجّل بموت المريض لكى يخلّصه من الآلام » ! !

من أجل ذلك ، كانوا ينظرون فى أوربا إلى مرضى الأعصاب نظرة اشمئزاز ، على اعتبار أنهم ملعونون من السماء حلّ بهم العقاب جزاء ما اقترفوا من آثام ، أو لأن الشياطين حلّت بأجسامهم فاستحقوا العذاب ! لذا كانوا يضعون هؤلاء المعذبين الأبرياء فى سجون خاصة كئيبة معتمة عفنة ، وأيديهم وأرجلهم مقيدة بالأغلال ، وأطلقوا على

تلك السجون أسماء تفصح عن القسوة والظلم المهين . مثل « المستشفى السجن » . . أو « برج المجانين » . أو « القفص العجيب » وفيه يتولى أمرهم رجال أو نساء غلاظ أشداء . يتعاملون معهم بالضرب والتعذيب والسب والإذلال !

يخطو الرازى – العالم الرصين المحبوب – خطوة أخرى من أجل الفقراء لم يسبق إليها أحد غيره : يؤلف كتابا يسميه « طب الفقراء » ، وصف فيه الأمراض الشائعة . أسبابها وظواهرها . وطرق علاجها والوقاية منها . وذلك بأساليب ميسورة فى كل وقت وفى كل بيت : مثل أمراض الجدرى والحصبة . وآلام المفاصل . والحصى المترسبة ، وآلام الكلى . وأمراض الأطفال . . ولم يغفل الإشارة إلى أهمية العناية بعوامل الحرارة والرطوبة والرياح والضوء ، ونظافة الهواء والمكان ، داخل البيت وخارجه . وطهارة المياه وفوائد الاغتسال . وتيسيراً على الناس ، كان يفضل وينصح فى علاج كثير من الحالات باستخدام النباتات الطبية الطبيعية كما خلقها الله .

ومن هنا ، فقد أضاف كتابا آخر عن فن الطبخ . لا حبا منه فى وصف لذيذ الطعام وحلو الشراب ، وإنما ليتحدث عن أفضل وأسلم الطرق الصحية لإعداد أنواع من الطعام . فى الحالات العادية (كوقاية) وفى مختلف الحالات المرضية (كعلاج) ، وما يؤكل وما لا يؤكل فى بعض الحالات .

وتمضى السنون المباركة من عمر هذا العالم الجليل ، إلى أن تتجاوز الثمانين . لكنها تبدو فى النهاية ، رحلة وئيدة مثقلة بالكآبة والملل والمعاناة . تماما كما شعر بها فى مقتبل حياته عندما كان يغنى للناس ويؤلف الألحان .

تقترب النهاية الحزينة لرحلة عامرة بالخير والعطاء والحب والصفاء ، والتى كان حصادها المكتوب وحده : مائتين وثلاثين مؤلفا فى الطب ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والفلك ، والفيزياء ، والرياضيات ، والكيمياء والشعر ، والغناء . .

يقضى السنوات الأخيرة فى فقر شديد ، بعد أن قدم للناس كل ماكان يملك من ثراء الدنيا وذهبها الذاهب . ووجد الحاقدون عليه والحاسدون من زملائه -- وكل ذى نعمة محسود -- فرصة مواتية للإيقاع به وافتراء التهم عليه . وما أيسر ماكان عليهم أن يفعلوا ، فهو المشهور بحرية الفكر ، وحرية الرأى ، وحرية الحكم على الأشخاص والأحداث والأمور ، غير منافق ولا مراءٍ ولا إمّعة . فدسّوا له بالوشاية والاتهام ظلما وعدوانا إلى أن « تغير خاطر » الخليفة نحوه ، وتلك كانت كارثة لا راد لها ولا مُدافع . فحرم من كل مناصبه وأبعد عن بغداد إلى مدينته الصغيرة « الرى » ، وقد أصبح كهلا فقيرا معدما ، وحيل بينه وبين الناس .

وما أكثر تحول الناس وانصرافهم خوفا ورهبا . . لم يجد من يأويه ويعنى به ، سوى شقيقته الصغرى خديجة ، حملته إلى بيتها ، ودموع غزيرة تناسب من عينيها . . لا تبك يا أختاه ! دموعك حسرة على الوفاء

يا ترى أم ندم على ما كان من فعل الخير ؟ ! كفكفى دمعك واشتكى إلى ربك !

أما هو ، فقد راح يشكو ألماً مبرّحا فى عينيه . لقد حمله قسرا حاكم خراسان الطاغية « المنصور بن إسحق » على إجراء تجارب كيميائية معينة أمامه ، كانت الأخيرة فى حياته . أداها الرازى — وهو شيخ عجوز — بنجاح ، لكنها أفقدته البصر . .

وجاءوه بطبيب ليجرى جراحة لعلها تنقذ بقية من أمل فى عينى الرجل الذى طالما أحيا الأمل فى نفوس الملايين وأنقذ حياتهم ، سأله الرازى : كم عدد طبقات أنسجة العين ؟ فاضطرب الطبيب ولم يجب . فصرخ الرازى فى حسرة اليائس : إن من يجهل الجواب على هذا السؤال ، أحرى به ألا يمسك بآلة يعبث بها فى عينى . دعونى لقدرى . فقد شاهدت الكثير من هذا العالم ، ولا أريد لعينى أن ترى منه المزيد !

وفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م . يرحل الرازى العظيم عن دنيا الناس ، فى صمت وهدوء كما دخلها . وتعثر « خديجة » بين مخلفاته من الكتب والمخطوطات على كومة من الرسائل والأوراق ، حاولت أن تتبين ما فيها ، لكنها لم تجد إلا وصفاً كتبه أخوها الراحل لحالات مرضية عرضت له ، وعجبت من إسهابه الشديد فى تسجيل كلام كثير دار بينه وبين مرضاه وتلاميذه . فألقت بكومة الأوراق بلا اكتراث فى صندوق قديم عندها ، ظل منسيا مهملا لسنوات ، إلى أن جاءها يوما ابن العميد وزير

السلطان ، وعلم بأمر الصندوق فاشتراه منها بدراهم معدودات . ولعلها ظنت بالرجل خبالا إذ يدفع ثمنا لتلك الأوراق البالية !

جمع ابن العميد نخبة من الأطباء وتلاميذ الرازى ، وطلب منهم أن ينتقوا من هذه الأوراق ما يصلح لجمع مادة كتاب لتدريس وقراءة فنون الطب . فكان أن ظهر إلى الوجود كتاب « الحاوى » فى ثلاثين جزءا ، أو قل : هو موسوعة فى علم الطب ، جمعت كل المعارف التى أفرزها العقل البشرى منذ أيام أبو قراط حتى وفاة الرازى العربى العظيم !

قبل ستمائة عام ، كانت كلية الطب فى باريس تملك أصغر مكتبة علمية فى العالم : إذ لم يكن فيها سوى كتاب واحد فى الطب ، ظل المرجع للأساتذة والطلاب زهاء أربعة قرون ، ألا وهو كتاب « الحاوى » ، يحمل اسم مؤلفه : « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى » . وبلغ من قيمة هذا السفر الفريد ، أن لويس الحادى عشر ملك فرنسا ، دفع ما يقرب من وزن الكتاب ذهبا وفضة ، لكى يتمكن أطباؤه من نسخه ثم إعادته إلى المكتبة ، فيصبح بين أيديهم مرجع يوثق به ، إذا ما ألمّ بالملك أو بأحد من أسرته ضعف أو سقم !

* * *

رحم الله من مضى . .

وأصلح الله من بقى !

وأعثر الله الراشدين على ميراث لا ينفد :

ميراث الفقراء ! !

الكتاب القادم

العمارة والبيئة

م . حسن فتحى



رقم الإيداع ١٩٧٨/٢٩٥٣

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٧٦ – ٧

٦٨/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتاب

خلق الإنسان ضعيفاً . . ومن هنا قد يطمح الإنسان إلى القوة ، أو هو يرهبها ، أو يحترمها . .

ومن هنا أيضا يتفاضل الناس ويتمايزون . .

والفقراء من الناس . . فقراء اليد . . وليسوا فقراء الفكر بالتبعية ، بل إن ميراثهم يمثل الثراء الذى امتد إلينا قويًّا خالداً . .

وهذه جولة شائقة فى ميراثهم العظيم الذى ينعكس يوما عن يوم على حضارة العرب والعالم أيضا . .

